تجليات الشعر الرمزي الصوفي لدى الشباب المعاصرين في برنو

Manifestation of Sufi Symbolic Poetry Among Contemporary Young Poets of Borno

By

Musa Allawan Saleh
Al-Ansar Academy, Maiduguri

Dunama Muhammad Ibrahim
&
Yahuza Abdullahi Muhammad
Department of Arabic Studies
University of Maiduguri

Abstract

This study explores the manifestation of Poetic Symbolism in the Arabic poetry of contemporary young poets from Borno, a region renowned for its profound Sufi traditions and significant contributions to Arabic literature. Sufi Poetic Symbolism is characterized by complex codes, paradoxical expressions, and symbolic imagery that require a deep spiritual understanding and philosophical insight, often acquired through mentorship from experienced Sufi masters. Historically, Borno has been a hub for prominent Sufi figures whose teachings and literary works have had a lasting impact on successive generations. This research examines how the Arabic poetry of Borno's youth continues the legacy of these foundational Sufi principles, adapting and evolving them to reflect the aesthetic and symbolic richness of Sufi discourse. Although there has been growing scholarly interest in Borno's poetry, the Sufi elements within these works have not received sufficient attention, thereby creating a research gap that this study seeks to fill. Employing both descriptive and analytical methodologies, the study identifies early and contemporary Sufi poets from Borno, analyzes their adherence to core Sufi principles, and emphasizes their aesthetic contributions to Arabic poetry in the region.

Keywords: *Manifestation, Sufi, Discourse Youth, Borno*

المقدمة

إنّ للسادة الصوفية ميزة جعلت من خطابهم شفرات ورموز لا يمكن أن يفكّها الإنسان دون المراجعة الدقيقة ومزاولة أبوابهم ومعاشرتهم فيتم للمتلقي بذلك فتح مغاليق هذه الرموز سواء كان ذلك في الشعر أو النثر، لأن تفكيرهم ونظرتهم منبثقة من قوة أعمالهم الصالحة التي أوصلتهم إلى أعلى درجات القرب إلى الله سبحانه. هذا، وإن الرمز الصوفي بمفهومه الدقيق نسيج من الألفاظ والكلمات التي تتمتع بخصائص محددة تميزها عن غيرها عن طريق التعامل مع الإيحاءات والإشارات.

بناء على ذلك، فالشعر الصوفي بشكل عام له كمية لا يُحصى لها عددا من تلكم الرموز التي تحمل في طياتها معان جليلة بألفاظ جزلة وعبارات دقيقة. وتعتبر ولاية برنو – قديما وحديثا – من أبرز الولايات النيجيرية التي أنجبت في رحمها سادة صوفية ذاع صيتهم مشارق الأرض ومغاربها بإسهامات أدبية في الشعر والنثر. وصاروا بذلك نموذجا حيًّا لكل صوفي ناشئ في ولاية برنو، فجاء شعر الشباب – بدورهم – البناء على ما مهده أولئك الفحول لِتُمثّل أشعارهم قمّة الروعة والجمال بخطابات صوفية انتهلوها من معين شيوخهم في بلاد برنو. وتتناول الدراسة ما يلي:

الدلالة اللغوية والاصطلاحية لمصطلح "الرمز":

إنّ دلالة الرمز من حيث المفهوم **اللغوي** عائد إلى معنى تحريك الشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليد أو الفم أو اللسان. وبعبارة أخرى هو الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم. وقد جاء في لسان العرب: رمز: الرمز: "تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين، وقيل: الرمز: إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم، والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه يبدأ بعين" (ابن منظور، 1987م ص: 224). وجاء في القرآن الكريم في قصة زكرياء عليه السلام: (أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا) [سورة آل عمران: 41].

فالرمز عند الزمخشري: رَمَز إليه وكلّمه، رمزًا: بشفتيه وحاجبيه، ويقال: جارة غمازةٌ بيدها همَّازةٌ لمّازةٌ بفهما رمَّازة بحاجبها، ودخلتُ عليهم فتغامزوا وتهامزوا [الزمخشري، 1907م ص: 206 و210]. ويتحدث ابن رشيق عن الإشارة والرمز قائلا: "الإشارة من غرائب الشعر وملحه، وبلاغة عجيبة تدل على بُعد المرمى، وفرط المقدرة، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز والحاذق الماهر، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار تلويح يعرف مجملاً ومعناه من ظاهر لفظه. وأصل الرمز الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم ثم استعمل حتى صار إشارة" [ابن رشيق، 1907م ص: 61 - 62].

ويصرح قدامة بن جعفر مفهوم الرمز بأنه: "ما أخفي من الكلام، أصله الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم، وإنما يستعمل المتكلم الرمز في كلامه فيما يريد طيَّه عن كافة الناس والإفضاء به إلى بعضهم، فيجعل للكلمة أو الحرف اسما من أسماء الطير أو الوحوش أو سائر الأجناس من حروف المعجم" [قدامة، 1980م ص: 160].

وأما الرمز في **الإصطلاح**: فيطلق أدونيس فكرته على أن الرمز وجه آخر للنص فيقول: "الرمز هو ما يتيح لنا أن نتأمل شيئا آخر وراء النص، فالرمز هو قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء، إنه اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة، أو هو القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة، إنه البرق الذي يتيح للوعي أن يستشف عالما لا حدود له، لذلك هو إضاءة للوجود المتعتّم اندفاعا نحو الجوهر" [أدونيس، 1980م ص: 74]. والرمز ليس صورة لغوية أو كلمة تستمد جمالها مما تدل عليه، بل هو واقعة أو تجربة حية ذات معنى روحي هو مصدر ما فيها من قيم جمالية [سلمان: 1945م ص: 74].

فعلى هذا الأساس، يمكن القول بأن التصور الرمزي هو الذي يفسر الرمز بوصفه أفضل صياغة ممكنة لشيء مجهول نسبيا، فهو لا يمكن أن يكون أكثر وضوحا أو أن يُقدم على نحو مميز.

الرمز في الأدب الصوفي:

إنّ الأدب الصوفي بشكل عام اتجاه رمزي في التعبير عن التجارب الروحية التي يعيشها ويمارسها العارفون بالله من السادة الصوفية. وعليه فإن التجربة الصوفية هي التي تدفع بالشاعر إلى اللجوء إلى رموز يستعين بكلمات توحي إلى صورة غير مباشرة وغير واضحة. وعلى هذا الأساس، فإن الرموز هي أطوع للشاعر من الكلمات الجامدة، ذات المدلول المحدود المعين، للتعبير عن تلك النفحات التي تهب على قلبه فتدركها بصيرته ولا يستوعبها عقله [الطوسي، 1960م ص: 414]. فالرمز بالنسبة لهم معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهرا لا يظفر به إلا أهله، قال أحدهم:

إِذَا نَطَقُوا أَعْجَزَكَ مَرْمَى رُمِوزِهِمْ ** وَإِنْ سَكَتُوا هَيْهَاتَ مِنْكَ اتِّصَالُهُ

[ابن الفارض، 1913م ص: 22]. ويذهب السادة الصوفية – بعبارة أخرى – إلى أنه محاولة الانتقال أو الدلالة إلى معنى الباطن، أو الإيحاء بمعاني مختلفة تلامس الأماكن الأكثر عمقا في النفس الإنسانية. وبالتالي فقد أشار ابن الفارض في قصيدته التائية المشهورة إلى معاني الرموز الصوفية التي يستخدمونها في نصوصهم فيقول:

وَعَنِّيَ بِالتَّلْوِيحِ يَفْهَمُ ذَائِقٌ ** غَنِيَّ عَنِ التَّصْرِيحِ لِلْمُتَعَنِّتِ
بِهَا لَمْ يَبُحْ مَنْ لَمْ يُبَحْ دَمُهُ وَفِي الْـ ** إِشَارَةِ مَعْنًى وَالْعِبَارَةُ حُدَّتِ

[خوالدية، 2014م ص: 17]. فهو يرى الشعر لا الإفصاح والإشارة لا العبارة، معنى هذا أن منهج شعراء السادة الصوفية في الترميز ليس إلا الدعوة إلى فهم المعاني الباطنية والنظر عن المعاني السطحية.

هذا، وإن التوظيف الرمزي والتكثيف الإيجابي منح شعراء الصوفية لغة جديدة ذات أبعاد إشارية مشفرة نابغة من نزعتهم الوجودية ونظرتهم المختلفة للعالم من جهة، ومن حسهم المرهف وعمق مشاعرهم من جهة أخرى [كعوان، 2009م ص: 486]. ويمكن استقاء معنى هذا المصطلح في قول الشاعر البرناوي عبد الله مصطفى:

تَكْفِي الْإِشَارَةُ إِذْ تَضِيقُ عِبَارَةٌ ** عَنْ وَصْفِ مَكْتُومِ الْمَقَامِ عَنِ الْوَرَى

حيث أن الترميز معلم من معالم لغتهم الشعرية. وانطلاقا من هذا، فإن الباحث اكتشف أن الشعراء الشباب في برنو استطاعوا الاستعانة بالترميز بشتى أنواعه في أشعارهم المختارة للدراسة، ويمكن حصرها في: الترميز بالمرأة، الترميز بالطبيعة، الرمز الديني، الترميز بالخمر، الترميز بالأحداث والشخصيات التاريخية. وهذه الأنواع التي تم ذكرها هي التي يمكن القول بأنّ الباحث اكتشفها في ثنايا قصائدهم المختارة للدراسة وذلك وفقا لما يلي:

أ/ رمزية المرأة:

إنّ رمزية المرأة في الشعر الصوفي عبارة عن خصوصية مشتركة لدى معظم شعرائه فهي بالنسبة لهم وسيلة للتعبير عن جمال ما يرونه وما تتعلق بنفسيتهم العاشقة للذات الإلهية والحقيقة المحمدية. هذا، والمرأة عندهم ليست تلكم التي يتغزل بها كثير عزة أو مجنون ليلى وغيرهما ممن اشتهروا في هذا المجال.

فالمرأة لدى الشعراء المتصوفة ليست إلا مجرد رمز فهي كناية عن المحبوب الذي شغفت أفئدتهم به، ومما لا شك فيه أن المحبوب لديهم هو الذات الإلهية، والغزل لديهم يقترب كثيرا من الغزل العفيف غير أنه يختلف عنه في نقطة جوهرية، وهي أن المحبوب لدى الصوفية ليس هو المحبوب ذاته لدى شعراء الغزل، ذلك أن الحب عندهم يجمع بين ذاتين محسوستين، بينما الحب عند الصوفية هو جمع بين ذاتين مختلفتين في الطبيعة، فالأولى ذات الصوفي الناسوتية، والثانية هي الذات العليا اللاهوتية، فما المرأة في تعبير الصوفي عن الحب الإلهي إلا الرمز الأكمل لتجلي الألوهية [المرجع نفسه والصفحة]. وبالنسبة للشعراء المختارين للدراسة في هذا المجال فقد طرق البعض منهم هذا الباب حيث نجد على سبيل المثال عمر آدم يقول:

أَقِمْ حَيْثُ اسْتَبَانَ لَكَ الْتِقَاءُ ** بِمَنْ تَهْوَى فَيَحْدِقُكَ الصَّفَاءُ
قَدِيمًا كَانَ لِي مِنْهَا الْوَلَاءُ ** حِبَالُ الْوَصْلِ أَصْرَمَهَا الْبَلَاءُ
أُنَادِي يَا أُمَيْمَةُ وَاصِلِينِي ** فَحَالَ الْبَوْنُ وَانْعَدَمَ الْهَنَاءُ

[البرناوي، 2020م ص: 33]. فالضمائر المستعملة في الأبيات المذكورة إشارة واضحة إلى خضوعه نحو رمزية المرأة في تجسيد لغته الشعرية، مشيرا إلى أنه في السابق موال لها لكن البلايا والمصائب التي حل بها أصرمت حبال الوصل تلك، ومع ذلك فهو يناديها "أميمة" بأن تصله وإن كان البون قد حال دون ذلك وانعدم الهناء الذي يتمتع به.

ب/ رمزية الطبيعة:

إنّ الشاعر العربي بشكل عام مختف غالبا ما خلف الطبيعة فيجسد بها تصوره للعالم ويتغنى بجمالها وهدوئها لأنه يعتبرها ملجأً يريح نفسه في عالمه الروحاني. والشاعر الصوفي – كما وصفه النقاد – يعتبر الطبيعة رمزا لرؤيته للوجود، فقد تنوعت لديه أشكالها سواء كانت حسية كالجبال والصخور والضباب والشمس، أو مستمدة من النور أو البحار والمحيطات. هذا، وقد تجلت هذه الظاهرة في رؤية شعراء برنو الشباب، فتغنوا بالطبيعة في أشكالها المختلفة معبرين عن تجربتهم الروحية وخذ على سبيل المثال قول الشاعر عمر آدم البرناوي:

وَيُبْكِي بِالسَّخَا مُزْنَ السَّمَاءِ ** بِتَذْكَارِ الْخِصَالِ لَنَا الدَّوَاءُ
وَتَعْتَرِفُ الْمُحِيطَاتُ جِهَارًا ** كَرِيمٌ قَدْ يَجُودُ كَمَا يَشَاءُ
أَتَانَا رَحْمَةً عَمَّ الْجَمِيعَ ** وَيَأْتِي لِلْبِحَارِ بِذَا الْبَلَاءُ

[المرجع نفسه والصفحة]. حيث صوّر مكانة محبوبه صلى الله عليه وسلم في الجود والسخاء بأن مزن السماء تبكي تذكارا لخصاله الحميدة بل المحيطات أيضًا كذلك تعترف بالأمر لأنه رحمة عم الجميع صلى الله عليه وسلم. وبالمضي قدما نحو الشاعر عبد الله مصطفى هو الآخر:

نُورٌ عَلَى نُورٍ أَتَى نُورًا إِلَى ** كُلِّ الْخَلَائِقِ مُنْذِرًا وَمُبَشِّرَا
فَأَضَاءَ آفَاقَ السَّمَاءِ وَمَا وَنَى ** فَالضَّوْءُ عَمَّ الْأَرْضَ كُلًّا نَوَّرَا

[الكانمي، 2020م] إذ أنه استمد من الطبيعة شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث وصفه بالنور الذي أضاء السماء والأرض. ويأتي مالك محمد سوار هو الآخر بقوله:

لَيْلٌ كَمَوْجِ بِحَارٍ قَدْ تَلَاحُ صَبَاحٌ ** فِي نَسِيمٍ رَقِيقٍ فَيْضُهُ غَدِقَا

[سوار، 2022م ص: 32] حيث وصف ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم كالليل الذي تلاه صباح تمتع بنسيم رقيق فيضه مغدق بعد أن كان كموج للبحر مستمدا من أبيات امرئ القيس المشهورة، فالليل والبحر والنسيم والفيض كلها من مظاهر الطبيعة، وقوله:

الجَوْهَرُ الْفَرْدُ سُورٌ نَاطِحٌ سُحُبًا ** البَرْقُ الَاسْطَعُ مِفْتَاحٌ لِمَا غُلِقَا

[المرجع نفسه والصفحة]. فالجوهر والسور الناطح للسحب والبرق الساطع كلها معالم طبيعية وصف بها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ج/ رمزية الدين:

يشكل الجانب الديني بعدا أساسيا من الأبعاد التي يعود إليها الصوفية في أشعارهم، ذلك لما يحتويه الدين من معان ودلالات غائمة والتي ضبطها الدين بعبارات محكمة يستعصي على الإنسان ضبطها، فأقحاح الصوفية وعارفوهم ركبوا سفن الغنوصية باحثين في ذلك عن الحقيقة آمنين بالوصول إليها، فهم حين علموا ورثهم الله تعالى علم ما لم يعلموه [بريكة، 2009م ص: 98].

وإن صفاء قلوب الصوفية وتجردها من الملذات المادية وزخرفها كشف لهم المولى – عز وجل – بها من العلوم ما لم يخطر على غيرهم، ففتح عليهم بمعارف غيبية، توقف عندها علماء الدين الإسلامي – حسب زعمهم – ولم يدركوها. وخاضوا بحار الأنوار حتى تجلت لهم الأسرار والمعاني المضمرة، لذا كان علمهم نورا يقذفه الله في قلوبهم، وهذا ما يعرف بالعلم

اللدني، فإيمان العامة بهاتف العلوم والمكاشفات ليس بالأمر الهين حيث أنهم لا يتقبلونها ولا يؤمنون بها، ويعدونها من الخرافات، فكان لزاما على الصوفية تقريبها إلى أذهانهم فجنحوا إلى الدين واستعاروا منه مواقف وحوادث وألفاظ ألبسوها لباسا إيحائيا يعبر عن حياتهم الروحية وعمق تجربتهم [المرجع نفسه والصفحة]. ومن أبرز هذه الأمور التي تجلت في شعر الشباب المختارين للدراسة قول آدم يونس الهوساري:

فَهُمُ الَّذِينَ عَنَواْ لِخِدْمَةِ دِينِنَا ** تَرَكُواْ الْمَضَاجِعَ سُجَّدًا وَقِيَامَا

[الهوساري، 2022م]. فالسجود والقيام رموز للصلاة ومعلوم أنها إحدى دعائم الإسلام، إذ حثّ في مستهل أبياته بمدح العباقرة الذين خصّوا أوقاتهم في سبيل خدمة الدين وهم الذين اعتنوا به وتركوا مضاجعهم للسجود والقيام عبادة لله سبحانه وتعالى. وقوله:

هُوَ عَارِفٌ مُتَمَسِّكٌ بِشَرِيعَةٍ ** حِبٌّ وَمَدَّاحٌ لِطَهَ غَرَامَا

فالشريعة الإسلامية مصطلح يُطلق على كل ما شرعه الله سبحانه وتعالى من أحكام وقواعد وأنظمة وقوانين بهدف تحقيق مصالح النّاس وسعادتهم في أمور العبادات والأخلاق والتعاملات مع الآخرين وفي كافة مجالات ونظم الحياة المختلفة [السعدي، 2014م ص: 304]. والشاعر وصف ممدوحه بأحد الرموز التي يمكن القول بأنها الحجر الأساس للثقافة الإسلامية، فالشريعة كما سبق التعريف بها عبارة عن العلم وفقا لتعاليم الدين. واستمع إلى إبراهيم عمر حيث يقول:

أَلَمْ تَكُ كَعْبَةَ الْعِلْمِ الْإِلَهِي ** وَمَائِدَةَ الْحَقِيقَةِ وَالْأَسَاسِ

[عمر، 2023م]. فهو عند الشاعر عبارة عن كعبة علمية يفد إليها طلبة العلم من أقصى البلاد إلى أدناه ومن شرقه إلى غربه، كما يفد المسلمون إلى الكعبة تعبدا لله سبحانه وتعالى، فرمزية الكعبة هنا عبارة عن وصف الشيخ بأنه مجمع علمي يهرول إليه كل من أراد الانتهال من معين ذلكم الشيخ العظيم.

د/ رمزية الخمر:

للخمرة مكانة كبيرة في التراث العربي، إذ تعدّ مادة لا تخلو منها مجالس القوم. وامتلاكها يعد مصدرا للمفاخرة وكما أن احتساءها رمز لعلوّ المكانة والشأن زمن الجاهلية التي انتشرت فيها الخمارات ومجالس الشرب، وقد تغنى شعراء العرب بالخمرة، ونظموا قصائد كاملة عرفت بالخمريات، فيها يصف الشعراء الخمرة وأنواعها وأذواقها وألوانها، ووصفوا الكأس التي تشرب بها، وخاضوا في وصف مجالس الطرب التي تصاحب نشوة الخمرة ومذاقها، وكل ما يحيط بمجلس احتسائها غير أن الخمرة في العرفانية الصوفية لا تعني الخمرة الحسية التي شغلت قصائد الشعراء العرب في الجاهلية وبعدها، وإنما كانت الخمر في الشعر الصوفي رمزا على الحب الإلهي لأن الحب هو الباعث على أحوال الوجد والسكر المعنوي والغيبة بالواردات القوية [عاطف، 1987م ص: 363].

فالشاعر الصوفي يعبر بالخمرة حين يغيب عن الوعي ويبلغ أقصى درجات الهيام والعشق، وحين يملأ قلبه حبا وغراما ومحبة إلهية، والخمرة رمز من رموز الصوفية الكبرى وهو رمز موجود صراحة أو تلميحا في كتاباتهم لمعاناتهم لحالتي السكر والصحو [وضحي، 2006م ص: 118]. وعلى هذا الأساس، فيمكن القول بأنه من خلال الوقوف على أبيات شعرائنا المختارين للدراسة ندرك رمزية الخمر راسخة وذلك فيما يبدو نتيجة لما وصلوا إليه من عشق إلهي بلغ بهم الحد إلى التعبير بالخمرة في مثل قول عمر آدم بعد أن أضحى ثملا محبة بممدوحه ومع حالته هذه فإنه لم يبح بأسراره وإن كان في حالة سكر لم يصح بعد:

ثَمِلْتُ بِخَمْرِ الْحُبِّ دهريَ لَمْ أَبُثْ ** بِسِرِّي، فَإِنَّ السِّرَّ مِنِّي لَمْ يُبَثْ

[البرناوي، مرجع سابق ص: 41]. معبارا عن كونه ثملا بخمر المحبة مدى الدهر، والسر منه لا يُفشى ولا يُبث. وقوله بعد أن أشار إلى ما قدّم ممدوحه نحو محبيه:

فهَامُواْ وجَالُواْ ثُمَّ طابُوا وأُطْرِبُوا ** سُكَارَى بِخَمْرِ الْحُبِّ حِلاًّ بِلاَ رَفَثْ

[المرجع نفسه والصفحة]محبة به تبينوا سكارى لكن ذلك السكر علته الحب القائم على أساس طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. ويقول عبد الله مصطفى:

وَإِنْ شِمْتَ بَرْقَ الْوَارِدَاتِ فَلَا تَقِفْ ** فَوَصْلُكَ لَا يَعْنِي التَّعَرُّفَ؛ فَاقْبِسَا

[الكانمي، مرجع سابق]. معبرا بذلك أن مكانة محبوبه وذلك منتهى في العشق الإلهي لأن الإنسان إذا ذاق خمر مدير محبة الله سبحانه أو ثمل سكرانا فالمفترض تقدير من يدير ذلكم الكأس بالشكر له سبحانه وتعالى.

هـ/ الترميز بالأحداث والشخصيات التراثية:

تشكل الأحداث والشخصيات التاريخية في الأدب الصوفي حيزا كبيرا بحيث أنّها بالنسبة لهم أحد عناصر التراث ومعطى من معطياته، وتقنية الترميز بالأحداث والشخصيات التراثية تعد إحدى الوسائل التعبيرية التي يلجأ إليها الشاعر لتحديث بنية القصيدة قصد الوصول إلى تشكيل رؤاه للعالم وللكون والتعبير عما يحس به [حمدان، 2007م ص: 3]. وقد أبدع شعراء برنو المختارين في هذه الدراسة في الترميز بالأحداث والشخصيات التاريخية وذلك للتعبير عن خلجات أنفسهم، يقول عمر آدم

جاهَدتَّ فِيهَا عُدُوَّ الدِّينِ آذَاكَا ** قدْ ذَاقَ مُرًّا بِبَدْرٍ عِنْدَ لُقْياكَا
فِي أُحْدِ قدْ هُزِمُواْ رمْزًا لِتقْوَاكَا ** وبِالرِّضَى يَحْتَظِي مَنْ كانَ يَلْقَاكَا
خَنْدَقْتَ كلَّ عُدُوٍّ رامَ بَلْوَاكَا ** أخْزَيْتَ فِي خَيْبَرٍ مَنْ جا لِغَزْوَاكَا
وفِي قُرَيْظَةَ خابَ الْهُودُ، أرْضاكَا ** سَعْدٌ بِحُكْمٍ أَتَاهُ اللهُ موْلاَكَا
وفِي حُنَيْنٍ أَتَى نَصْرٌ بِبُغْياكَا ** وفِي تَبُوكَ عِظَاتٌ سَرَّ مَنْ جَاكَا
بِالْمُعْجِزَاتِ إِلَهُ الْعِرْشِ قَوَّاكَا ** أَعَزُّهَا لَكِتَابٌ مِنْهُ أَسْدَاكَا

[البرناوي، مرجع سابق ص: 18]. فالشاعر هنا استمد من الأحداث التاريخية صورته الشعرية فربط مكانة ممدوحه بالترميز بالأحداث التاريخية من أمثال غزوة بدر التي تسمّى بغزوة الفرقان، وغزوة بدر الكبرى، فبعد أن هاجر رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- إلى المدينة المُنوّرة، وبدأ بإنشاء دولته [السرجاني، 2018م ص: 1-4]، حدثت الغزوة بعد أن نزل قوله تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [سورة الحج: 39]. وغزوة أحد وغزوة الخندق ثم أحداث بني قريظة وغزوة حنين غزوة تبوك كل هذه أحداث ووقائع سطّرها التاريخ الإسلامي بالإضافة إلى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم بشتى أبعادها.

والشاعر آدم يونس في وصف ممدوحه له بالبعض من الشخصيات الصوفية التي يمكن القول بأنهم من يُعتبرون الحجر الأساس لرسوخ التصوف الإسلامي في القرنين التاسع عشر والواحد والعشرين والطريقة التجانية بشكل خاص، فاستمع إليه حيث يقول:

مُتَوَاضِعٌ كَأَبِي الْفُتُوحِ وَصَابِرٌ ** كَحَرَازِمِيّ وَقَدْ قَفَا بَرْهَامَا

[الهوساري، مرجع سابق]. فالشيخ أحمد أبو الفتح اليرواوي والشيخ علي حرازمي الكنوي كلاهما تلامذة للشيخ إبراهيم انياس الذي يُلقب ببرهام، وهذه الرموز الثلاث لهم مكانتهم ووصف ممدوحه بهم ليس إلا رفعا لشأنه وتجميلا لصورته

الشعرية التي تمتعت برمزية الشخصيات التراثية. وفي موقف آخر له جسّد الشاعر الشخصيات التاريخية الذين هم أيضًا ممن يشار إليهم بالبنان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم بدءً من الصحابي الجليل حسان بن ثابت ونزولا إلى الشيخ إبراهيم انياس حيث استعان بالتسلسل التاريخي لحياتهم فقال:

فَإِنَّ مَادِحَهُ الْحَسَّانَ سَابَقُهُمْ ** وَجَاءَ كَعْبٌ بِمَدْحٍ سَبْكُهُ طَبَعُ
وَأَبْدَعَتْ يَدُ عَبْدِ اللهِ ثُمَّ شَدَا ** كَعْبُ ابْنُ مَالِكٍ الْأَشْعَارَ تَرْتَفِعُ
وَرَاقَنِي مَدْحُ شَرْفُ الدِّينِ ذُو دُرَرٍ ** وَنَجْمُ نَبْهَانَ فِي أَمْدَاحِهِ شِبَعُ
وَزَيَّنَتْ يَدُ فَازَازِي وَسَائِلَهُ ** وَحِكْمَةُ الْبُرَعِي فِي الْمَدْحِ تَتَّسِعُ
وَجَاءَنَا سَيِّدِي بَرْهَامُ مُرْتَفِعًا ** إِلَى سَمَاءِ مَدِيحٍ سَيْبُهُ هَمِعُ

[الهوساري، مرجع سابق]. فالشعر الصوفي مهما غمض تاريخ نشأته لا يمكن أن يختفي ما دامت إسهامات الشخصيات المذكورة راسخة في كتب التراث. فالشاعر هنا رمز إلى مكانة مادحي المصطفى صلى الله عليه وسلم بشخصيات تاريخية إسلامية تراثية صوفية لهم مكانتهم في المجال فأشار – كما أسلفنا – بمن سبقهم في المجال وهو حسان ثم كعب وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ثم نزولا إلى الإمام البوصيري والفازازي والإمام البرعي ثم الشيخ إبراهيم انياس.

ومن الجدير بالذكر أنّ الشخصيات الصوفية التجانية موجودة بشكل كبير في أشعارهم، وقد أبدعوا في الترميز بشخصيتهم فالشاعر مالك محمد سوار أيضًا يقول:

هَا قَدْ حَرَمْتَ بَنِي التِّجَّانِي سَعَادَةً ** ظَلَّتْ مُثَلَّجَةً صُدُورَ النَّاسِ
وَجَعَلْتَ مِنْهُمْ فَجْوَةً فِي فَيْضِ بَرْ ** هَامَ الْهُمَامِ سَيِّدِي إِنْيَاسِ

[سوار، مرجع سابق ص: 66 - 70]. فالشيخ أحمد التجاني والشيخ إبراهيم انياس علمان من أعلام الطريقة التجانية، ويمكن اعتبارهم شخصيات في تراث الطريقة التجانية وقلما تجد قصيدة صوفية تجانية خالية عن ذكرهم في هذه البلاد، لأنه لا يمكن الحديث مهما كان الأمر عن التجانية والتجانيين من دون التمهيد بذكر هاتين الشخصيتين.

الخاتمة:

تناولت هذه الدراسة إسهامات الشباب المعاصرين في برنو، وذلك من خلال توظيف الرموز الصوفية في مختلف أشعارهم، حيث ذكرت بعضا منها معتمدة على ترميزهم للمرأة والطبيعة والدين والخمر والأحداث والشخصيات التراثية. وتوصلت الدراسة إلى ما يلي من النتائج:

- أن شعراء برنو الشباب استطاعوا بقرائحهم الشعرية الإدلاء بدلائهم في مجال الشعر الصوفي فجاءت شخصيتهم في المجال راسخة.
- وإنّ الرمز الصوفي لدى شباب برنو هو امتداد لما انتهلوه من معين شيوخهم الذين تأثروا بهم في المدرسة الصوفية والفضل عائد إليهم بالطبع.
- كما أن التجربة الصوفية في شعرهم مستقاة من البنية الروحية التي نشأت في نفوسهم من خلال رواد هذا الفن في بلاد برنو.
- هذا، ومما يمكن استكشافه أن الترميز بالمرأة والطبيعة والدين والخمر والأحداث الشخصية تعتبر من أبرز المعالم التي تميزهم عن غيرهم من الشعراء الشباب.

- كما أنّ الغزل الصوفي والحب الإلهي نال حظا وافرا به من خلال القصائد المختارة للدراسة. أضف إلى ذلك أن المصطلحات الصوفية تواجدت بأعداد كبيرة في القصائد المختارة مما جعل القصائد كلها تمثل الأصالة في الرمز الصوفي.

المصادروالمراجع

- القرآن الكريم
- ابن الفارض، عمر بن علي بن مرشد الحموي: **الديوان**، الطبعة الأولى، مصر، 1913م
- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني: **العمدة في صناعة الشعرونقده**، تحقيق محمد النعساني ومحمد عبد العزيز، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى، 1907م
- ابن منظور، محمد بن مكرم: **لسان العرب**، ج1 دار صادر بيروت لبنان، 1987م
- أدونيس، علي أحمد سعيد: **زمن الشعر**، دار العودة، بيروت لبنان الطبعة الثالثة، 1980م
- إسحاق السعدي: **دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه**، دار الفجر للتراث، 2014م
- البرناوي، عمر: **ديوان العمريات**، نسخة تصويرية، 2020م
- حمدان، عبد الرحيم: **استدعاء الشخصيات الوطنية والجهادية والتراثية في ديوان "حديث النفس" للشاعر الشهيد عبد العزيز الرنتيسي"**، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الخامس عشر، العدد الأول، 2007م
- خوالدية، أسماء: **الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا**، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2014م
- الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي: **أساس البلاغة**، تحقيق محمد باسل عيون السُّود، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1991م
- السرجاني، راغب: **السيرة النّبويّة**، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، 2018م، الجزء التاسع عشر
- سلمان، نور: **معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي**، رسالة ماجستير – الجامعة الأمريكية في بيروت 1945م
- سوار مالك، **دوحة الأدباء**، الشركة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2022م
- الطوسي، أبو سراج: **اللمع**، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي، دار الكتب الحديثة مصر، 1960م
- عاطف، جودة نصر: **الرمز الشعري عند الصوفية**، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الأولى، 1978م
- عمر، إبراهيم: **مجموعة قصائد**، نسخة تصويرية، 2023م
- قدامة بن جعفر: **نقد النثر**، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، 1980م
- الكانمي، عبد الله مصطفى: **مجموعة قصائد**، نسخة تصويرية، 2022م
- كعوان، محمد: **التأويل وخطاب الرمز، قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر**، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسطنطنية، الطبعة الأولى، 2009م
- محمد بن بريكة: **التصوف الإسلامي، من الرمز إلى العرفان**، مطبعة الأريكة، المملكة المغربية، 2009م
- الهوساري، آدم يونس: **مجموعة قصائد**، نسخة تصويرية، 2022م
- وضحي، يونس: **القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري**، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2006م